المجدد جمال الدين الأفغاني

وإصلاحاته في العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الأصالة والمعاصرة

42

المجدد جمال الدين الأفغاني
وإصلاحاته في العالم الإسلامي

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق - كلية الشريعة

دار المكتبي

الطبعة الأولى
1418 هـ - 1998 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الغرَّ الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

البشرية في كل عصر مدينة بالتقدير وعرفان الجميل لمن يصحح مسيرتها ، ويبعث فيها روح النهضة ، والسير لبناء الحضارة والمدنية ، وإصلاح الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويظل هذا المعروف والنصح مطوقاً أعناق الناس ، فيذكرونه بالفضل ، وتقدير المبادرة إلى اليقظة ، والانتباه إلى مخاطر الأوضاع المتردية ، ومخاوف المستقبل ، وملاحظة شروره وآثاره الضارة على الحياة

والأجيال المتلاحقة ، علماً بأن المصلح أو الحكيم لا يملك إلا الكلمة الواعية الهادفة ، والعمل بإخلاص لأمته ، وإدراك ما يتفتح عنه العقل اليقظ المدبِّر ، قبل استفحال النتائج .

ولقد ابتليت الأمة الإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي ، بعقدة التخلف وظاهرة التأخر ، في مواجهة النهضة الصناعية في الغرب ، وما عانته من تآمر الغرب والشرق على تصفية الخلافة العثمانية ، وتسوية ما سموه بالمسألة الشرقية[1] ، فقطَّعوا أوصال وحدة العالم الإسلامي ، وفرقوا الأمة ، وقسَّموا البلاد إلى كيانات ودول ضعيفة صغيرة ، وأبعدوا تأثير الإسلام عن الوجود الدولي ، وحجبوا معاني القرآن الكريم ومفاهيمه عن الفكر

---

(١) أطلق المؤرخون اسم المسألة الشرقية على مجموع المشكلات التي تتعلق بالدولة العثمانية ، والتي مرت بدورين بارزين : دور نهوض الدولة العثمانية وهجومها على أوربا ، فكان يقصد به اتحاد أوربا المسيحية ضد الخطر العثماني الإسلامي ، ودور ضعف الدولة ، فصار معناه : اتفاق الدول الأوربية على الإجهاز على هذه الدولة . ولكن تضارب المصالح الأوربية جعلها تختلف فيما بينها ، فيقف بعضها مدافعاً عن العثمانيين ، وبعضها يحاول إضعافها إلى النهاية وتصفيتها .

السياسي الداخلي والخارجي ، واستغلوا مظاهر الضعف والتأخر لدى المسلمين ، وساعد كلَّ ذلك سوءُ الوضع الداخلي للخلافة العثمانية ، وظهور البواعث القومية ، وهذه المحنة أعظم وأخطر داهية أصابت المسلمين في العصر الحاضر ، كما يرى المحللون المتعمقون في مشكلات العالم الإسلامي المعاصر .

وفي هذه الآونة من التمزق والانقسام ، والتخلف والضعف ، والركود والخمول ، ظهر مجدد القرن الرابع عشر الهجري ، وباعث النهضة ، وداعية الإصلاح ، ونصير الحرية والعدالة والتحرر من نير الاستعمار في مختلف البلاد الإسلامية ، ألا وهو المجدد الحكيم الثائر السيد جمال الدين الأفغاني محمد بن صفدر (١٢٥٤-١٣١٤ هـ - ١٨٣٨-١٨٩٧ م) في ٩ آذار (مارس) حيث توفي بعد مرض عضال ألمَّ به وهو السرطان[١] .

ولكنه ترك آثاراً بعيدة المدى في حقل الإصلاح الديني والسياسي ، والفكري والعلمي ، والاجتماعي ،

---

(١) الأعلام للزركلي ٧/ ٣٧ .

والاقتصادي ، في الأقطار الإسلامية ، وخلّف قادة مدرسة إصلاحية ، ماتزال مبادئها ، ومطامحها ، وغاياتها ، ومناهجها ، موضع ريادة وتقدير ، في الجامعات والحياة التحررية ، التي آذنت بطلوع شمس الحرية ، والاستقلال ، والتخلص من كابوس الاستعمار الحديث ، والتدخل الأجنبي ، ومواجهة المحتل عسكرياً وفكرياً ووطنياً ، وكان لأفكار الأفغاني امتداد جذري عميق في كل أنحاء البلاد الإسلامية ، وظهور حركات التحرر ، وولادة الأحزاب الوطنية ، وقيام دعوات الإصلاح والتجديد ، بطريق مباشر وغير مباشر ، ومنها مدرسة الشيخ محمد عبده وتلامذته ، والدعوة السلفية أو الوهابية في نجد ، والدعوة السنوسية في ليبيا (بنغازي وطرابلس) ثم الجزائر ، والدعوة المهدية في السودان .

وبحثي هذا[1] يتناول آثار الأفغاني الإصلاحية في المجالات التالية لتحقيق هدف واحد ، ألا وهو توحيد كلمة المسلمين :

---

(١) قدم لندوة « السلطان عبد الحميد الثاني والإسلام الحر » في الفترة ٧ـ٨ حزيران « يونيو » ١٩٩٧ م بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الأفغاني .

ـ أثره في الإصلاح الديني .

ـ أثره في الإصلاح السياسي .

ـ أثره في الإصلاح الفكري والعلمي .

ـ أثره في الإصلاح الاجتماعي .

ـ أثره في الإصلاح الاقتصادي .

وكانت منطلقات نشاطه الخصب أو الثَّرّ ، وجهاده الدائم في سبيل الإصلاح والتجديد ثلاثة أمور :

ـ قوة شخصيته وجرأته وشجاعته .

ـ عقيدته في الحق والعدل المجرد .

ـ تعطشه للحرية وكراهية الاستبداد .

١ـ أثر الأفغاني في الإصلاح الديني :

كان قرن الأفغاني في الفكر الديني متسماً بالجمود ومدارسة القديم في حلقات التعليم في الأزهر وغيره ، ولم يكن لدى العلماء في ذلك العصر تفتح على الحياة المعاصرة ، ولا تفاعل مع مقتضيات النهضة الصناعية في الغرب ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، ولا التفات

لمخاطر الظلم والاستعباد والاستبداد ، وتدخل المستعمرين في شؤون المسلمين الداخلية والخارجية .

وكان دورهم مقصوراً على فهم القديم ، وحفظ النصوص ، وتحليل العبارات ، دون استيعاب لمقاصد الشريعة وروح التشريع ، ولا استعداد لجهاد الظالمين والغاصبين والمحتلين ، ولا لتوجيه العزائم والهمم لبناء نهضة قوية في مجال المال والصناعة والاقتصاد ، لمنافسة الغرب .

وكان العالم الشهير ، ولو في مركز شيخ الإسلام في الآستانة أو مصر ، يجمد على ظاهر الكلمة ، فيبادر إلى نقد الأفغاني وأمثاله ، واتهامه بالكفر والضلال ، وهدم الإسلام ، إما بدافع الحسد ، وإما لضيق الفكر ، والجهل بأحوال ومفاهيم العصر ، مثل تسرع شيخ الإسلام أبي الهدى الصيادي في استانبول في عهد السلطان عبد الحميد باتهام الأفغاني بالكفر والزندقة ، لقوله مرة يصف جمالَ مكانٍ بعبارة شاعرية : « أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » . ومثل تسرّع المحافظين على القديم في مصر في دروسهم بالطعن في منهج الأفغاني بدراسة كتب الفلسفة ، أخذاً بقول بعض العلماء في القرن السابع كابن صلاح

(٦٤٣ هـ) والنووي (٦٧٦ هـ) بتحريم المنطق والنظر في الكتب الفلسفية ، ونسبوا ما فيها من ضلالات للأفغاني[١] حتى اضطر هذا الرجل للدفاع عن نفسه إلى المطالبة بمحاكمة شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي لأنه طعن في عقيدته بالباطل ، وأصر على طلب هذه المحاكمة ، ولم يسمع لمن نصحوه بالهدوء والترفق ، حتى اشتد الثائرون عليه من علماء الدين ، فرأت الحكومة لتهدئة الفتنة إصدار أمر له بالرحيل عن استانبول ، فرحل إلى مصر سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م[٢] .

ولم تكن أفكار الأفغاني إلا من إبداع الفكر ، وجولان العقل في الكون وأسراره ، بحسب المنهج القرآني في ضرورة التأمل في خلق السموات والأرض ، وفهم أسرار الحياة ، وتفسير مجاهيل المعلومات العلمية .

ويتضح هذا في أسلوبه العلمي النير في « رسالة الرد على الدهريين » التي تفرغ لوضعها في زيارته للهند في المرة

---

(١) الحكيم الثائر جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ المغفور له محمد سلام مدكور : ص ٣٥ ، ٩٣ .

(٢) المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي : ص ٤٩٢ .

الثالثة ، حيث تجد فيها الأدلة والبراهين النيرة في تثبيت الإيمان والعقيدة ، والرد على دعاة نبذ الأديان ، والتحلل من أصول الإيمان ، وبيان مذاهب الحكماء والفلاسفة في حقيقة الوجود ، والرد على المنحرف أو الضالّ منها ، وتفنيد نظريات الماديين أو الطبيعيين .

ـ ومن ردوده أن الرادع للنفس والمانع لها من تجاوز حدود الاعتدال أحد أمور أربعة :

١ـ **المدافعة الشخصية** : وهذا لون بدائي يؤدي لفناء الإنسان .

٢ـ **شرف النفس** : وهذا يختلف باختلاف البلاد والأعراف ، حيث يكون الأمر خسيساً عند بعض الناس ، ورفيعاً عند آخرين .

٣ـ **الحكومة** : وهي لا تكف إلا العدوان الظاهر .

٤ـ **الاعتقاد بالألوهية** : وهو الحصن المنيع والوحيد لمقاومة الأهواء والشهوات ، فإن الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ، وأنه قدَّر للخير والشر جزاءً يلقاه في الآخرة ، يكبح جماح النفس عن الشهوات ، ويمنع العدوان ، ويمحو أثر الغدر ، وهو الدرع الواقي من الظلم

وتجاوز الحد ، والوسيلة لإحقاق الحق ودحر الباطل ، وبدون الإيمان على هذا النحو لا تصلح حياة الناس الاجتماعية ، ولا تستمر المدنية ، وإنما تكون الهيمنة للرذائل ووساوس الشياطين .

ـ ومن مبادىء الأفغاني قوله : « إن الإسلام والذل لا يجتمعان في قلب واحد » .

وساء الأفغاني ما وجد عليه علماء الإسلام من ضعف الإرادة ، وفقد العزيمة ، والاستكانة للآخرين ، مع مخالفته صراحة لتعاليم الدين الحنيف الذي يدعو أهله إلى الاعتزاز بالكرامة ، والجرأة في الحق ، والإخلاص في العمل ، وترك الكذب والنفاق والتملق ، ونحو ذلك من الأمور الخسيسة التي تتنافى مع الإنسانية الراقية ، ولا تستقيم مع الحياة الحرة الشريفة .

ـ وقد شغف هذا المصلح برؤية الإسلام عزيزاً كريماً ، والمسلمين أعزة شرفاء ، وهو يتطلع بثاقب نظره لإحياء مجد الإسلام وخدمة المسلمين .

ـ وكان يعلن أن الإسلام دين العقل والنظر والنقاش ، وأن إيمان المسلم لا يصح إلا بالاعتماد على الدليل والبرهان

القاطع أن الله واحد لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويؤسفه أن يجد بين العلماء وبين الفلسفة الرشيدة ، لا الهرطقة سداً منيعاً ، وبعداً واضحاً .

ـ واجتهد في المنهج العلمي على أساس الجمع بين الأصالة والتمسك بالثوابت ، وبين معطيات العلم العصري ، لأنه يدرك أن فهم القرآن الكريم والسنة النبوية على نحو صحيح وتأويل سديد ، كفيل بإحداث تطور عظيم ، وانقلاب حصاري ومدني رفيع .

وقد استطاع الأفغاني بهذا الأسلوب أن ينفخ في الأزهريين روح اليقظة والتجديد ، حتى أصبح الأزهر قلعة لنهضة دينية وعلمية وإصلاحية ، مايزال إلى الآن يترسم خطاها .

وأدى ذلك إلى ظهور علماء معاصرين ، أدركوا مرامي الإسلام ، وجمعوا بين الدين والعلم العصري والمدنية ، وأن الترقي والتقدم والمدنية هي من أصول الإسلام وصميم مبادئه ودعوته .

وتجلى أثر هذه الجهود في أن يقاوم الأزهريون الحكام المستبدين ، وأن ينتقدوا شيخ الأزهر الشيخ محمد العباس في عدم إصداره فتوى لمصلحة النظام الدستوري ، وأن ينتخب

الطلاب الشيخ محمد عليش المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ لمشيخة المالكية ، خلافاً لما جرت به العادة من أن الحاكم هو الذي يعين مشايخ المذاهب ، وكان هذا الشيخ معروفاً بالصراحة والوطنية ، حتى إنه أفتى بخلع الخديوي إسماعيل ، وأنه لا يصلح لولاية المسلمين ، لبيعه البلاد للأجانب ، وإطاعته إشارات قناصل أوربا .

ولقد وعى الأفغاني الإسلام وعياً صحيحاً ، وتعمق في فهم القرآن والسنة ، فركز على تصحيح العقيدة ، وعلى توفير الساحة العملية لتكون ظاهرة نظيفة من التدخل الأجنبي ، وبثّ في طلابه وأصدقائه روح الوطنية وحب الحرية ، ووجوب التألب على الحكم الاستبدادي في مصر الذي أدى للضعف والتخلف ، وأطمع الأجانب في الاستيلاء على البلاد ، ولم يهمه في هذا ما كان من إكرام الخديوي إسماعيل باشا له ، لأنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة[١] .

---

(١) المجددون في الإسلام ، المرجع السابق : ص ٤٩٢ .

٢ـ أثره في الإصلاح السياسي :

الدين والسياسة في تقدير الأفغاني أمران متلازمان لا ينفصلان ، والإصلاح الديني والدعوة إليه في مصر والآستانة وغيرهما من البلاد الإسلامية يجب أن يترافق مع الإصلاح السياسي .

ويرى هذا الحكيم المجاهد أن حب الأوطان أو الوطنية والتحرر من النفوذ الأجنبي ، من صميم الإسلام ، لذا كان يكره الإنجليز المستعمرين كراهية شديدة ، ويعمل من أجل ذلك على تحرير مصر والهند وأفغانستان من الاستعمار الإنكليزي ، وعلى كشف سياسة إنكلترا ومطامعها ، وأساليبها في الدس والتفريق التي عرفت بها ، فقام بنشاط واسع المدى في البلاد للتحريض عليها .

فبعد أن أدى فريضة الحج سنة ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٧ م ، وبعد أن مكث في الهند سنة وبضعة أشهر يتعلم الإنكليزية ، كما تعلم الفارسية والتركية من قبل ، عاد إلى أفغانستان وطنه الأصلي وبلد النشأة والميلاد[1] ، فأخذ يبث في الشعب

---

(١) الراجح أنه ولد سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨ م بأسعد آباد من أعمال =

الأفغاني مبادىء الوطنية وروح الحرية ، وتقلّد بعض المناصب ، حتى وصل إلى منصب كبير الوزراء في عهد « محمد أعظم » وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين حينئذ ، لينهض ببلاد أفغانستان ، لكي تقوى على مقاومة الإنكليز وغيرهم ، فحرَّض الناس ضد الإنكليز ، وبدأ الغليان والتمرد في أنحاء أفغانستان ، وعمل الإنكليز على إثارة الفتن ، حتى تمكنوا من عزل الأمير محمد أعظم ، وتولية أمير آخر يرضون عنه .

دأب جمال الدين على إثارة الشعب الأفغاني على الإنكليز والأمراء المستبدين ، وبث فيهم حب الوطنية والحرية ، ليقضوا على نفوذ الإنكليز في بلادهم ، واستمر يكافح الدسائس ، ويكتشف المؤامرات التي تدبر لاغتياله[1] .

= كابل قاعدة أفغانستان ، ودرس في مدارسها القديمة علوم العربية والتاريخ والإنشاء والعلوم الدينية والفلسفية على اختلاف أنواعها ، ثم رحل إلى الهند فدرس فيها بعض العلوم الحديثة . (تاريخ محمد عبده ١/ ٢٧) .

(١) المجددون في الإسلام : ص ٤٩١ ، الحكيم الثائر جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ محمد سلام مدكور : ص ١٨ـ١٩ .

ثم رأى جمال الدين أن يفجر ثورة عامة على الإنكليز وغيرهم ، فرحل إلى الهند ، وأخذ يدعو إلى الإصلاح الديني والسياسي والعلمي والاجتماعي بين أهلها ، حتى ضاق الإنكليز به ، ونفوه إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م .

وقال لمن كان حاضراً معه حين تبليغه الإنذار بالرحيل عن الهند :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تُعدُّون بمئات الملايين ذباباً ، مع حاميتكم البريطانيين ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملوا سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثرواتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف . لو كنتم أنتم مئات الملايين ـ كما قلت ـ ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذن بريطانيا ، ويجعل في أذن كبيرهم وَقْراً ، ولو مسخكم الله ، فجعل كلاً منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا ، لجررتموها إلى قاعه ، وعدتم إلى هندكم أحراراً » .

وفي مصر تابع الأفغاني نشاطه ودعوته ضد الإنكليز ، ونشر في جريدة « مصر » فصولاً مطولة ناطقة بعداوته للإنكليز ، وعمل على تأليف « الحزب الوطني » سنة ١٨٧٩ م

للعمل على طرد الإنكليز ، وانضم للحزب كثير من العلماء والنـواب ، مثـل الشيـخ محمـد عبـده ، وعبـد الله نـديـم ، ومحمود البارودي ، وأعضاء مجلس شورى النواب .

ومن مبادىء الحزب : تعميم التعليم في مصر ونشر الثقافة ، ويتطلب هذا حرية المطبوعات ، والمطالبة بإطلاق الحريات الكافية للنواب ، وتقوية الجيش وزيادته ، وإصلاح البـلاد مـاديـاً وأدبيـاً ، ولا يكـون ذلـك إلا بحفـظ الشـرائـع والقـوانيـن ، وتـوسيـع نطـاق المعـارف ، وإطـلاق الحـريـة السياسية التي هي حياة الأمة .

واعتبر الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ م الوارث الوحيد المباشر للحزب الوطني القديم ، حيث كان هناك اتصال بين الأفغاني ومصطفى كامل . وكانت ثورة أحمد عرابي في مصر على الخديوي توفيق باشا ، والحركة الوطنية التي تزعمها سعد زغلول ضد الإنكليز من آثار دعوة الأفغاني لمحاربة الإنكيز وطردهم من مصر .

وشرح الإمام محمد عبده تلميذ الأفغاني المقصد السياسي لأستاذه قائلاً : إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق بالدول

القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف ، وله في عداوة الإنكيز شؤون يطول بيانها .

وفي فرنسا : قام الأفغاني في سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤ م بإنشاء « جمعية العروة الوثقى » وإصدار « مجلة العروة الوثقى » لتدعو المسلمين إلى النهوض في دينهم ودنياهم ، وتحرضهم على الثورة على المستعمرين لبلادهم ، ولاسيما الإنكليز الذين استعمروا كثيراً من بلاد المسلمين ، كما تحرضهم على الثورة على المستبدين من ملوكهم ، ليكونوا أحراراً في بلادهم ، ويمكنهم من النهوض بما بقي منها في أيديهم .

ثم عمل المستعمرون على إجهاض نشاط هذه المجلة ، وقضوا عليها بعد ظهور عشرة أجزاء منها .

وكانت مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الإسلامية ، الرابطة الشرقية ، المسألة المصرية ، المسألة السودانية[١] .

وفي إيران : دعا سلطان فارس ناصر الدين شاه جمال

---

(١) تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده ١/ ٢٨١ ، ٣٠٦ وما بعدها .

الدين ، فسافر إليها سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٦ م ، فأكرمه هذا السلطان ، وقربه إليه ، وعينه وزيراً للحربية ، على أن يجعله بعد هذا رئيساً لوزرائه ، فقام بدعوته الإصلاحية في فارس ، وفي معاداة الإنكليز ، وارتحل من فارس إلى روسيا ، لما خشي منه السلطان لمتابعة دعوته الإصلاحية .

وفي العراق : أنشأ مجلة « ضياء الخافقين » نهج فيها منهج مجلة العروة الوثقى ، وأخذ يؤلب الأحرار من الفرس على سلطان فارس ناصر الدين شاه ، حتى قتله أحدهم .

ثم سافر الأفغاني إلى استنابول سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م فاستقبله السلطان عبد العزيز والحكومة واستطلعوا رأيه الديني والسياسي .

ثم دعاه السلطان عبد الحميد سنة ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢ م إلى استانبول ، فقرّبه منه ، وجعل يستشيره في شؤون الدولة ، وفي معرفة مخططات الأعداء من الإنكليز والأوربيين ، إلى أن توفي في استنابول سنة ١٣١٤ هـ/ ١٨٩٧ م .

إن أنشطة الأفغاني وحركاته ورحلاته في البلاد تتركز في الجانب السياسي على محاربة الاستعمار الغربي البريطاني ، والاتجاه الاستعماري في التفكير ، وتحرير الوطن الإسلامي

من الاستعمار ، مع اتخاذ وسائل تحقيق هذا الهدف ، والقيام بثورة علنية تعتمد على القوة ، لا على مجرد الكلام[1] .

١ـ أما تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي : فيعتمد على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم ، واستعادة الجامعة الإسلامية الواحدة ، وتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ، بتأسيسه « جمعية أم القرى » في مكة المكرمة .

ويتم ذلك بطرح ما طرأ على الإسلام من عادات غريبة في السلوك ، وأفهام سقيمة في شرح تعاليمه ، وبالرجوع إلى الإسلام الأول في استلهامهم التوجيه المباشر منه ، وقال عن الشرق بأنه في حاجة إلى حاكم قوي عادل ، ولا يمكن أن تحيا مصر ولا يحيا الشرق إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً يحكمه بأهله . ثم قال : إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال[2] .

٢ـ وأما محاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير :

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي : ص ٩٢ وما بعدها ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام للمستشرق الإنكليزي جيب : ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) جمال الدين الأفغاني للأستاذ محمد سلام مدور : ص ٣٨ .

فبالوقوف في وجه الشبه التي تثار ، والتخريبات المغرضة لنصوص مَصْدري الإسلام : القرآن والسنة الصحيحة ، وبيان زيفها بالأسلوب العلمي والتاريخي ، وتصحب ذلك محاولة تقريب الإسلام من العقلية الجديدة ، وتوضيح أن هذه المبادىء هي لتوجيه الإنسان توجيهاً سليماً ، نظرياً وعملياً ، في أي عصر قديم أو حديث .

٣ـ **التعبئة العامة للشعوب الإسلامية** على أساس من دينها ، لا على أساس من مذهب الطوائف فيها .

٤ـ **الدين لسيادة المؤمنين به** ، وعلى المؤمنين أن يحافظوا عليه ، ويتمسكوا به ، ويدافعوا عنه لتبقى لهم السيادة .

منهج تنفيذ هذه المبادىء :

برز نشاط الحكيم المجاهد الأفغاني في مقاومة الاستعمار في ناحيتين : هما الرد على الدهريين في الهند ، ومحاربة الاستعمار البريطاني[1] .

---

(١) الدكتور محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٦٧ وما بعدها ، المستشرق جب في المرجع السابق والمكان السابق .

ـ أما الرد على الدهريين في الهند : وهم الماديون جماعة السيد أحمد خان في الهند الذي نادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء ، وليس لهذا الكون إله حكيم ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين ، لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع ، ولقب نفسه : الطبيعي .

وهؤلاء الجماعة مظهر من مظاهر الاستعمار الذي يسعى لإفساد عقيدة المسلمين بالتشكيك فيها أو بالصرف عنها ، ومحاولة جعل الولاء لبريطانيا من تعاليم الإسلام ، وإبقاء البريطانيين مستعمرين الهند .

ردَّ الأفغاني في رسالته « الرد على الدهريين » أثبت فيها أن الدين أساس المدنية وقوام العمران ، وأبان أن هؤلاء الدهريين يختلفون عن الدهريين في أوربا بأنهم كما يدعون الناس إلى نبذ الدين يهوّنون عليه مصالح أوطانهم ، ويسهّلون على الناس تحكم الأجنبي فيها ، ويجتهدون في محو آثار الغيرة الدينية والجنسية ، وهكذا يمتاز دهري الشرق ، عن دهري الغرب بالخسة والدناءة ، بعد الكفر والزندقة[1] .

---

(١) البهي ، المرجع السابق : ص ٢٨ وما بعدها .

ويتلخص رده على الدهريين بثلاثة أمور : بيان ضرورة الدين للمجتمع ، وأضرار المذهب الطبيعي على المجتمع ، ومزية الإسلام بصفته عقيدة وديناً على الأديان الأخرى[1] .

أما كون الدين واجباً للمجتمع :

فقد عبّر عنه الأفغاني بقوله : إن الطبيعة لم تحدد طريقاً معيناً لتحقيق شهوات الإنسان ، فيكون طريقها : إما السيف والقوة ، وهذا يفضي إلى سفك الدماء والتخريب ، وإما شرف النفس ، وهو محدود بالعرف والعادة ، وليس له مقياس عام ، وإما الحكومة : وهي لا تعرف إلا الاعتداءات الواضحة ، وإما الاعتقاد بمدبّر الكون ومالك الجزاء في الاخرة ، وذلك هو المتعين .

والعقيدة الدينية تكفل للمجتمع ثلاثة عناصر أساسية :

هي الحياء والأمانة والصدق ، ووهم الدهري لا يجتمع مع هذه الفضائل ، والدين ينظم الروابط الاجتماعية ، فهو السبب المتعين لسعادة الإنسان .

---

(١) البهي ، ص ٦٨ وما بعدها .

وأما أضرار المذهب الطبيعي :

فكثيرة ومتنوعة الأمثلة من تاريخ الأمم ، التي برز فيها هذا المذهب بصور متعددة على النحو التالي :

ـ إن حياة الشعب الإغريقي فسدت بإباحية المذهب الأبيقوري ، كما فسدت حياة الشعب الفارسي بالتأثر بمذهب مزدك .

ـ وفسدت حياة المسلمين في القرن الرابع الهجري ، حينما دخلت عليهم الباطنية بمصر ، وكانت هي التي مهدت للحرب الصليبية وحرب التتار .

ـ وانحلت أخلاق الفرنسيين ، واشتعلت نار الثورة الفرنسية ، بظهور آراء فولتير وروسو ، اللذين سخرا من الدين والإله ، ولم يعد يُجْدي ما صنعه نابليون في إعادة المسيحية ، كما لم يُجْد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في إعادة الإسلام إلى مجده الأول .

ـ وخان بعض قادة العثمانيين في الحرب الروسية ـ التركية سنة ١٨٧٧ـ١٨٧٨ م في البلقان ، لزحزحة الأتراك بصفتهم مسلمين ، عن شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان ، لتأثرهم

بالمذهب الطبيعي ، أو تبنيهم مذهب « العصر الجديد » كما خان أعضاء بعض الجمعيات الإسلامية[1] ملتهم ، بسبب هذه الأفكار .

وأفسدت أوربا والشعب الروسي مذاهب الاشتراكية أو القومية ، أو الاجتماعية بتحطيم الامتيازات الإنسانية كافة ، وإباحة الكل للكل ، وباعتقاد منحة الطبيعة لجميع ما على الأرض ، وبأن الدين والملكية عقبتان عظيمتان أمام نشر هذه المبادىء التي تتنافى مع الفطرة والجهد الإنساني .

وأما مزية الإسلام :

فإنها كما قال الأفغاني ، مزية فريدة ، فهو في مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية إليه ، لأن له مزايا ليست متوافرة في دين آخر .

أولها ـ أنه صقل العقول بصقال « التوحيد » ، وطهرها من لوث الأوهام ، وذلك يحول دون اعتقاد أن كائناً من الكائنات ، له تأثير نفع أو ضر ، كما يحول دون اعتقاد أن الله

---

(١) جمعية الاتحاد والترقي .

يظهر بلباس البشر ، أو حيوان آخر ، أو أن تلك الأوهام في ديانات البرهمية في الهند ، والبوذية في الصين ، والزرادشتية (المجوسية) في فارس .

ثانيها ـ أنه تحقق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي ، لا غير ، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة ، وهذا لا نجده في أديان أخرى ، فالبرهمية قسمت الناس إلى طبقات ، واليهودية فضّلت شعب إسرائيل على بقية الشعوب .

ثالثها ـ جعل الإسلام العقيدة قائمة على الإقناع ، لا على التقليد ، واتباع ما كان عليه الآباء .

رابعها ـ أوجد المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وأقام المؤدب الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فإن اعتُرض على الإسلام بحال المسلمين السيئة ، فجوابه : أن المسلمين بلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد ، ويكفي القول بهذا النص الشريف : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

ـ **وأما محاربة الاستعمار البريطاني** : فإن الأفغاني وجه كفاحه إلى الاستعمار البريطاني بخصوصه ، نتيجة احتكاكه المباشر به في مصر والسودان والهند . وكان ذلك عن طريق المقالات السياسية ، التي ينشرها في مجلة « العروة الوثقى » ضد الاستعمار الغربي[1] ، بواسطة شرح الآيات القرآنية ، أو الأحاديث الصحيحة ، مما جعل كفاحه السياسي على أسس إسلامية ، وقد صدر من هذه المجلة ثمانية عشر (١٨) عدداً في ثمانية أشهر ، من ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ .

أما في مصر : فقد أبعد الأفغاني عنها سنة ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م في عهد الخديوي توفيق ، بمشورة

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده ١/٣٣١ وما بعدها ، ٣٣٦ وما بعدها ، ٣٤٠ وما بعدها .

القنصل الإنكليزي ، بعد أن نشر فيها الدعوة إلى الإصلاح ، وأوجد رجالاً فيها يقومون بعده ، كالإمام محمد عبده ، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه يرأس « جمعية من الشبان ذوي الطيش تجتمع على فساد الدين والدنيا » .

وصوَّر الأفغاني في المقال الافتتاحي لأول عدد من جريدة « العروة الوثقى » حادث الاحتلال البريطاني لمصر ، على أنه كارثة على العالم الإسلامي ، وأهاب بالمسلمين بباعث من دينهم ، أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال ، وتابع مقالاته في إيقاظ المسلمين بوحي من دينهم أن يتعاونوا على مقاومة المستعبد ، ونادى في الناس : « مصر للمصريين ، السودان جزء متمم لها »[1] .

وأما احتكاك الأفغاني بالسلطة البريطانية في الهند : فتتضح في زياراته الثلاث لهذه البلاد ، ومن اضطراره إلى الرحيل من أفغانستان إلى الهند تحت ضغط الدسائس الإنكليزية[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٤ وما بعدها ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ـ٣٧٨ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٥٩ ، ٣٨٤ .

وفي الهند : ردَّ كما تقدم على الاتجاه الطبيعي أو الاتجاه العلمي التقدمي الذي حاول به السيد أحمد خان أن يجعل الولاء للإنكليز مشتقاً من تعاليم الإسلام ، وينشىء جيلاً يعاون الاستعمار باسم التقدمية في الإسلام ، ثم إنه شوّه الصلة بين زعيم هذا المذهب والبريطانيين في الهند ، على أساس من كشف رزايا الاستعمار في العقيدة والاقتصاد والاجتماع .

وصوّر الإنكليز في صورة الغاصب المستعبد ، ووجّه المسلمين إلى أن الركن الأعظم لدينهم ، يحتم عليهم إجلاء العدو عن ديارهم ، وطرح ولاية الأجنبي عنهم ، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته .

يتبين من هذا أن ولاية الأجنبي على المسلمين ، كانت محور الخصومة في الفكر الإسلامي ، في ظل الاستعمار الغربي ، بين محاول لقبولها ، وبين رافض إياها ، وأن جهود الأفغاني وكفاحه وثورته ، إنما هي انتصار للحق والحرية والعدل ، ورفض قاطع للباطل والاستعباد والظلم .

٣ـ أثره في الإصلاح الفكري والعلمي :

كان الأفغاني رحمه الله مثال الرجل المسلم المجاهد الذي لا يهدأ ، والمغامر الذي لا يعرف التردد ، والمفكر العظيم الذي فهم الإسلام فهماً عميقاً ، والسياسي الداهية ، والحكيم الخبير الذي يدرك الأمور وخطورتها ، فيبادر إلى إصلاحها ، ويلاحظ انحراف الفكر والعلم ، فيصحح للمتعلمين الدرب ، ناقش الفلاسفة الغربيين مثل الفيلسوف الكبير الإنكليزي هربرت سبنسر ، وهانوتو ، وآرنست رينان ، فأفحمهم ، حتى قال « رينان » عنه بعد نقاش في موضوع فلسفي يذود عن الحق ، ويدفع الباطل ، ويدافع عن الضعفاء ، ويرفع الظلم[١] :

« يخيل إلي من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته ، وأنا أتحدث إليه أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة ، وأني أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو

---

(١) المرحوم الأستاذ محمد سلام مدكور ، المرجع السابق : ص ٦٨ .

أحد من عرفتهم من أساطين الحكمة الشرقيين ، الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ـ أحب جمال الدين الحكمة والفلسفة ، ووهب نفسه لخدمة الإسلام وترقية حال المسلمين ، وعمل على إنهاض الأمة فكرياً وعلمياً وسياسياً ، ونادى في بلاد فارس وغيرها بضرورة وضع الدساتير ، وبالحفاظ على ممتلكات الأمة .

وحينما زار فارس سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م بدعوة من الشاه : ناصر الدين شاه ، واستقبله الشاه استقبالاً باهراً مع الأمراء والعلماء والعظماء ، وعينه وزيراً للحربية ، ومستشاراً خاصاً للشاه ، قال للشاه ، بعد أن نكل عن قبول الدستور الذي قدمه له جمال الدين الأفغاني ، وقال الشاه له : « أيصح أن أكون وأنا ملك ملوك الفرس كأحد الفلاحين ؟ »

فقال جمال : اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك ، وعظمة سلطانك ، وقوائم عرشك ، ستكون بالحكم الدستوري أعظم مما هي الآن ، والفلاح والعامل والصانع في المملكة ـ يا حضرة الشاه ـ أنفع من عظمتك ومن أمرائك ، واسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته . . لا شك ـ يا عظمة الشاه ـ أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش

بدون ملك ، ولكن ، هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية ؟! » .

وبعد أن سافر إلى الآستانة سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م عين عضواً في مجلس المعارف بعد ستة أشهر من وصوله ، فقدم تعاليم جديدة وإصلاحات للمناهج مفيدة .

ـ أدرك الأفغاني أن تقدم الأمة لا يكون بغير العلم العصري ، مما يوجب تغيير أساليب التعليم ومناهج التدريس ، وقدر معطيات الفلسفة ، وأبان أن الإسلام دين العلم والعقل والنظر والمناقشة ، وأن المدنية الأصلية من صميم الإسلام ، وأن إعمال الفكر فيما يعود على الأمة بالتقدم والرقي ، وكتب مقالاً ضافياً عن الإنسان الراقي بعنوان « الإنسان الراقي ملاكٌ أرضي » جاء فيه :

مما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات : ترفع المعتقِد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصناعات الحيوانية ، ولا ريب أنه كلما قوي هذا الاعتقاد ، اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية ، وأخذ منها بأوفر الحظوظ ، حتى قد ينتهي الحال إلى أن يكون واحداً من أهل

المدنية الفاضلة ، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة ، وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الإنسانية في الدنيا ، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

ـ وعلى الرغم من أن الأفغاني كان حنفي المذهب ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ، فإنه كان يسخر من القائلين بسد باب الاجتهاد ، ويبني عقيدته على أساس المنطق والحكمة العقلية ، ويناقش الأحكام بالعقل ، فإذا به يقر كل ما أمر الله به ، لا يفرط فيه قيد شعرة ، مطيعاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ، ويلتزم الكتاب والسنة الصحيحة ، ولا يكاد أحد يساويه في حميته الدينية ، وغيرته على الدين وأهله ، وليس أحداً أشد محافظة منه على أصول مذهبه وفروعه .

ـ تأثَّر بمبادئه وأفكاره تلميذه الشيخ محمد عبده ، فقال عنه مرة :

« أُوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، وأعقل بها العقول ، وأذل بها شوامخ المصاعب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومُنحت من لدنك عزيمة أتعتع بها الثوابت ، وأصدع بها شُمَّ المشاكل ، وأثبتُ بها في الحق

حتى يرضى الحق ، وكنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومُكْنتي لا مبتوتة ولا مقدورة ، فإذا أنا من الأيام ، كل يوم في شأن جديد » .

ـ وفي الآستانة حينما ذهب الأفغاني إليها سنة ١٨٩٢ م ، واستقبله السلطان عبد الحميد استقبالاً باهراً ، وأعد له قصراً فاخراً ، ورتب له مكافأة شهرية ، عزم الأفغاني على البقاء في الآستانة ، وقربه السلطان منه وجعل يستشيره في شؤون دولته ، وتأمل أن يرشد السلطان إلى ما فيه صلاح الدولة العثمانية والممالك الإسلامية ، ورفعة المسلمين ، وتخليصهم من أيدي الولاة الظالمين .

ومكث في جوار السلطان ، وكأنه في سجن إلى أن توفي سنة ١٣١٤ هـ/ ١٩٨٧ م ، ونقل رفاته إلى بلاد الأفغان سنة ١٣٦٣ هـ .

ـ حقاً كما قال عنه الزركلي[1] : فيلسوف الإسلام في عصره ، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة .

---

(١) الأعلام : ٧/ ٣٧ .

تنقل من أفغانستان إلى مكة حاجاً سنة ١٢٧٣ هـ ، وإلى الهند ، ومصر ، والآستانة سنة ١٢٨٥ هـ ، فجعل فيها من أعضاء مجلس المعارف ، ونفي منها سنة ١٢٨٨ هـ ، فقصد مصر ، فنفخ فيها روح النهضة الإصلاحية ، في الدين والسياسة ، وتتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده ، وكثيرون .

ـ وأما في جانب اللغة والأدب : فإنه أحيا معالم الأدب واللغة خطابة وكتابة وأسلوباً ومعنى ، تميز بجمال اللفظ ، وقوة البيان ، ورصانة التعبير ، وشدة التأثير ، وعمق المعنى .

ومن كتبه ذات التأثير البالغ في تحريك الشعوب ضد المستعمرين كتاب « تتمة البيان في تاريخ أفغان » ، وكتاب « الخلافة » الذي صادرته الحكومة الإنكليزية في الهند ، لما فيه من المساس بها وبسياستها .

ـ ومن أجل بث أفكاره ونشر مبادئه ، أنشأ مجلة « جماعة أم القرى » في مكة المكرمة ، ومجلة « العروة الوثقى » في باريس مع تلميذه الشيخ محمد عبده ، ومجلة ضياء الخافقين في العراق ، كان فيها صوت الحق الهادر ، ومؤجج فكرة

الحركة الوطنية في مصر وغيرها ، والعدو اللدود لبريطانيا ، والداعية القوي للعدل وإنقاذ الضعفاء ، وتحرير الأمة الإسلامية ، ومفجر الثورة حيثما حل وارتحل ، وانتقل في بلاد العالم من روسيا ، إلى ألمانيا ، إلى إيران ، إلى مصر ، إلى غيرها من البلاد ، وكلما نفي من بلد ، أو ضيق عليه في إيران أو استانبول ، ينشر مقالاته في الصحف باسم مستعار وهو « مظهر بن وضاح » .

وكان يرى أنه لابد من تعميم التعليم والثقافة ، وإطلاق الحريات ، وإعمال العقل ، والتزود من العلم العصري .

منهجه العلمي والفكري :

ركز الأفغاني نشاطه في الدين والسياسة ، أما الدين فعمل على إظهاره بفهم معمق ، وتأويل حسن ، وتجاوب مع مقتضيات العصر ، وأما السياسة فدعا إلى السياسة العادلة ، وشجب السياسة الظالمة ، وتعشق الحرية ، وكافح الاستبداد ، وصارع الاستعمار البريطاني ، ودعا إلى التحرر مستعيناً بالله وبتحرك الشعوب المناضلة ، وببيان طبائع الإنكليز وأفكارهم ، وحرّض المصريين والهنود والعثمانيين

على الإنكليز ، وأثار العالم الإسلامي ، واعتمد على الوحدة الإسلامية الفعالة ، والجامعة الإسلامية المتحركة ، وقوة المسلمين الذاتية ، حيث قال : « كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، فزع لها المسلمون ، وغابوا عن معرفة أسبابها »[1] .

وأما منهجه الذي اقترحه لجعل المسلمين قوة متماسكة ، سائرة في الحياة ، حريصة على أن تكون سيدة نفسها ، فيبدو في هذه الجملة : « . . . أرجو أن يكون سلطان جميع المسلمين القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين » . « إن القرآن حي لا يموت . . كتاب الله لم ينسخ ، فارجعوا إليه ، وحكّموه في أحوالكم وطباعكم » .

وأسباب تخلف المسلمين الحالي فيما يأتي[2] :

١ـ ظهور البدع ، وانتشار قواعد الجبر في الأذهان والنفوس ، وحَمْل نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده ١/٣١٦ .
(٢) الفكر الإسلامي الحديث ، للدكتور محمد البهي ، ص ٨٠ ، تاريخ محمد عبده ١/٣١٨ .

على المسلمين ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ، وفهم بعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان ، مما يثبّط الهمة عن السعي وراء الإصلاح والنجاح[1] .

٢ـ ما أدخله الزنادقة فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجري .

٣ـ ما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود ، وعدّوها خيالات .

٤ـ ما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ، ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ عن ربه ، ويثبتونها في الكتب ، وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة ، وإضعاف الهمم ، وفتور العزائم .

٥ـ ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال الأفغاني : « فلو قام العلماء بهذه الفريضة زمناً قليلاً ، ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في نفوس المؤمنين ، رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً يسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا ،

---

(١) تاريخ محمد عبده ١/ ٣٢٤ وما بعدها .

وهو مجد الله الأكبر »[1] .

٦ـ تفرق المسلمين ، يقول : « أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كلٌّ يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ ، فعلى الأفغانيين أن يتفقوا مع إخوانهم الإيرانيين ، إذ لا اختلاف بينهم في المصالح العامة ، فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وهي أشرف الروابط ، رابطة الدين الإسلامي » .

دعوته إلى القرآن :

يتبلور جوهر حركة الأفغاني في الدعوة إلى القرآن ، وبعث القرآن وبثّ تعاليمه الصحيحة بين الناس ، وشرحها على وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .

ولابد من تهذيب علومنا ، وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قريبة سهلة الفهم[2] .

---

(١) مجموعة العروة الوثقى : ص ٢٤٤ .
(٢) نظام الإسلام ، د . وهبة الزحيلي : ص ٤٤١ .

ويقول : القرآن وحده هو سبب الهداية ، والعمدة في الدعاية ، وأما ما تجمع حوله من آراء الرجال ، واستنباطهم ، ونظرياتهم ، فينبغي ألا نعوّل عليه بصفته وحياً ، وإنما نستأنس به بصفته رأياً .

وبهذا يكون هناك في تاريخ الجماعة الإسلامية نوعان من المصادر[1] :

الأول : مصدر مؤكد ، هو القرآن ، وما في منزلته من السنة المتواترة والإجماع .

الثاني : ومصدر غير مؤكد ، يصح أن يستأنس به ، وهو ما تجمع حول القرآن من آراء المسلمين وشروحهم للإسلام .

وفي هذا يلتقي الأفغاني مع ابن تيمية ، ويلتقي معه ابن عبد الوهاب بعده ، والسنوسي الكبير في ليبيا .

٤ـ أثره في الإصلاح الاجتماعي :

كانت دعوة الأفغاني التجديدية في القرن الرابع عشر الهجري دعوة إصلاحية عامة ، لأنه كان يدعو إلى الإصلاح

---

(١) الدكتور محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٨٢ .

في الدنيا والدين ، ويقصد به جميع المسلمين في كل الأقطار ، وينادي فيه بالثورة على حكامهم المستعمرين والملوك المستبدين ، وعلى الجامدين من علماء الدين[1] ، ويعتمد على أصول الوحدة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية ، ويرى أن آفة الشرق ثلاثة :

امراؤه المستبدون ، وزعماؤه المترفون ، ومرشدوه الجاهلون[2] . ويرى أن سعادة الأمم لا تتم بغير أمور أربعة وهي[3] :

الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، فإنها لو تدنس بها العقل ، لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع . وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصوله : الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الأكوان ،

---

(١) المجددون في الإسلام ، للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي : ص ٤٩٥ .

(٢) تاريخ محمد عبده ١/ ٣٨٣ .

(٣) جمال الدين الأفغاني ، للأستاذ محمد سلام مدكور : ص ٥٩ـ٦١ .

متوحد في خلق الفواعل والأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد بأن له في الكون أثراً بنفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو اعتزاز أو إذلال .

الثاني : أن تكون الأمم نفسها مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه .

الثالث : أن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة ، والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة ، قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً .

الرابع : أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، ولا يألون جهداً في تبيين طرق السعادة لهم ، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها ، وتكشف عن الأوصاف الفاضلة ، وتفضح ستور الرذائل ، وتشتد في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لذلك لم يكن السلطان عبد الحميد المحب للحكم الاستبدادي المطلق ، وخنق الحرية ، وتعطيل الدستور ، ووقف الإصلاح على وفاق مع الأفغاني .

٥ـ أثره في الإصلاح الاقتصادي :

كان الأفغاني حريصاً على المال العام ، ويقدر مخاطر تردي الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، ويدرك أن ارتباك الاقتصاد يمهد لتدخل المستعمرين والسيطرة على المسلمين ، لذا رغّب في الصناعة في خطابه بدار الفنون في تركيا ، في رمضان سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ م ، وكان مما قال : إن كل صناعة بمنزلة عضو من البدن ، تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن .

وقد نبَّه لهذا في مصر وتركيا وإيران ، أما في مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا ، فكان سوء الناحية المالية مستتبعاً سوء الناحية السياسية ، من فشو الظلم ، وازدياد الجور ، والتدخل الأجنبي في مصر ، وإذلال المصريين . وأما في تركيا فكان السلطان عبد العزيز منغمساً في الترف ، وكان إسرافه لا يعرف الحد ، حتى أصبحت أكثر موارد الدولة رهناً لدى الدول الأوربية لضمان القروض مع الأجانب .

وفي إيران حسنما قلّت مصادر المال بسبب البذخ والإسراف في بلاط الشاه ، والانكباب على الشهوات ،

واستلاب أموال الرعية ، أصبح الشاه في حاجة شديدة إلى المال ، فأخذ يتاجر بحقوق أمته ، فباع للبارون « يوليوس لوترن » سنة ١٨٨٩ م حق تأسيس بنك شاهاني إيراني ، وحق إصدار البنكنوت باسم الدولة ، وباعه حق استخراج المعادن من جميع المناجم الإيرانية ، وحق إنشاء سكة حديدية بين طهران وأهواز ، وأسرف الشاه في منح الامتيازات وبيع حقوق البلاد ، واحتكر التنباك المستر « تالبوت » في آذار (مارس) سنة ١٨٩٠ م بإذن الشاه لمدة خمسين سنة ، بشروط بخسة ، تعود كلها على المحتكر وعلى الشاه . وكان من أقواله الخالدة : « احفظوا المال فأنتم إليه أحوج . . إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

وتصدى الأفغاني لذلك ، وملأ الصحف كتابة ، والمنتديات خطابة ، للتنديد بمخاطر هذه التصرفات ، واستعدى علماء الشيعة على الشاه ، فأرسل كبير مجتهدي الشيعة الحاج ميرزا حسن الشيرازي كتاباً للشاه يبين فيه : أن إعطاء الامتيازات وبيع حقوق الأمة للأجانب ، من الأمور التي يحرمها الدين ، ثم أفتى هذا المجتهد بتحريم التنباك ، فأقفلت مخازن التنباك أبوابها .

الخاتمة

جمال الدين الأفغاني الحسيني مجدِّد القرن الرابع عشر الهجري ، وزعيم الإصلاح العام في الدين والدنيا ، في أقطار العالم الإسلامي ، ولاسيما في نطاق التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشتدت إليه حاجة الأمة ، وكانت عنايته في أوربا مع الشيخ محمد عبده بالتجديد السياسي أكثر ، في مجلة « العروة الوثقى » التي أصدراها في باريس وهزت العالم الإسلامي كله هزاً ، وزلزلت أقدام الدولة البريطانية زلزالاً شديداً .

ولكن كان اهتمام الأفغاني في إصلاح الأمة والسياسة أكثر من اهتمام تلميذه الشيخ محمد عبده ، وكان تأثيره أقوى ، وممارسته للعمل السياسي أوقع ، لأن الدين ينمو وينتعش بإصلاح السياسة ، فصار بحق مصلحاً دينياً ، وفيلسوفاً

حكيماً ، وزعيماً سياسياً محنكاً .

وقد حقق هذا المصلح آماله ، وكان كلما نفي من قطر يزداد التهاباً وحماساً في قطر آخر ، نفي من الهند مرتين ، ومن مصر ، ومن أفغانستان ، ومن تركيا ، فكان للنفي تأثير عكسي ، فلم يقعد عن نشاطه المتألق ، وإنما زاد اشتعالاً ، وتفجيراً للثورة حيثما حل وارتحل .

لقد مات الأفغاني رحمه الله بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربي ، استمر قرابة ثلاثين عاماً ، وبوفاته عن عمر الستين ، انتشر كفاحه واتجاهه في التفكير ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وبخاصة في البلاد التي تسلط عليها الأجنبي الدخيل .

ظهر أثره في مصر : في الشيخ محمد عبده ومدرسته السلفية ، وفي الجزائر : في جمعية علماء الجزائر التي أسَّسها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٠ م ، وفي أندونيسيا : في حركة تجديد « المنار » وفي الهند : في جماعة أهل الحديث ، وفي ندوة العلماء لمؤسسها الشيخ المحدث محمد شبل النعماني سنة ١٩٤١ م ، وفي أزهر الهند : في مدرسة دار العلوم في « ديوبند » التي نقلت بعد تقسيم ١٩٤٨ م إلى

« أكوري » في بشاور في الباكستان .

وتحقق أمله وطموحه وكفاحه بخروج الإنكليز من الهند سنة ١٩٤٧ ، ثم في مصر في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ م .

ويجمع كلَّ هذه الحركات هدف واحد للأفغاني : هو تحرر الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي ، ومحاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير .

والحمد لله ذي العزة المتين .

المحتوى

تقديم ٥
أثر الأفغاني في الإصلاح الدِّيني ٩
أثره في الإصلاح السِّياسي ١٦
أثره في الإصلاح الفكري والعلمي ٣٢
أثره في الإصلاح الاجتماعي ٤٢
أثره في الإصلاح الدِّيني ٤٥
الخاتمة ٤٧
المحتوى ٥١

* * *